أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/٨/١٠م

لا أريد في مناسبة الإسراء والمعراج أن أسرد أحداثها، ولا أن أختار من رواياتها... لكنني أنطلق من المناسبة، ومن بيئتها وظرفها، إلى أملٍ نحتاج إليه، فأمتنا اليوم هي أحوج ما يكون إلى الأمل، فقد أكلها اليأس، ومزقها حال الإحباط...

لم يكن الإسراء والمعراج في زمن رخاء وسرور وسَعة في حياة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، لكنه جاء في وقت محنة وشدة، وهذا ما أريده بالضبط، فنحن أمةٌ كلما اشتد ليلها نظرت من خلال سُجُف الغيب إلى الصباح، واثقة بأن سنة الله سبحانه وتعالى هي محو ليل ليأتي بعده النهار.

سنة الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو الذي قال: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

واقرؤوا أحداث السيرة، وقارنوا في سنوات لا في قرون بين أبي جهل الطاغية الذي يصول ويجول فلا يردعه أحد، وبين مشهدِهِ مضرَّجًا في ساحة بدر، وقد ارتقى فوق صدره عبدُ الله بن مسعود، أضعفُ أصحاب رسول الله، الذي كانت ساقاه كعودين يابسين.

وانظروا إلى مشهد أمية بن خلف الذي يعذِّب بلالاً ويُلهبُه بالسياط في حرِّ الظهيرة، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مشهد بلال وهو يَطعَن أمية ويقول: **"لا نجوتُ إن نجا"**.

وانظروا إلى مشهد أبي سفيان الذي يقول: **"اعلُ هُبَل"**، متجبّرًا متكبرًا، وانظروا إليه قبيل فتح مكة وهو يبحث عن طريقٍ للنجاة، ويسأل عن صديقه العباس لعله يدخله على رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأمن منه، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم للعباس: امضِ به إلى مكة واحبسه في المكان الفلاني المنعطف، حتى يرى شوكة الإسلام، ويرى جيوش الإسلام الجرّارة...

ألا يندرج هذا كلُّه في السنة التي جعلها الله سبحانه وتعالى سنةً ثابتة لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً؟

وهكذا، ومن قلب الحزن، وبعد عام الحزن الذي عاشه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد وفاة مُسانِده أبي طالب ووزيرِه خديجة، وبعد إيذاء أهل الطائف له، وتسليطِهم صبيانهم عليه... من قلب هذا الحزن رفعه ربُّنا، وأشهده الآيات، وأراه الآية الكبرى، وأخرجه من موطنه، ثم رفعه ليُشهده مشاهد الغيب.

والذي لا يكون في وقت الشدة والمحنة موصولاً بمشاهد الغيب لن يرتقيَ من محنته ولن يرتفع منها أبدًا.

إذا بقينا نترك قلوبنا أسيرة إعلامٍ كاذب، يفترس القلوب افتراسًا، ويحولها إلى المادية الصرف...

قانون السببية حقٌّ، لكن الغيب يقلب القوانين، فقد صارت النارُ بردًا وسلامًا لإبراهيم، وانتصرت القلة القليلة التي صدقت وثبتت مع طالوت على المتجبّر جالوت بجيوشه الجرَّارة، وأُغرق فرعون ومن معه وما معه، وموسى لا يملك من الأسباب شيئًا، وخُسفت الأرض بقارون حينما خرج على قومه في زينته...

إذا تدخَّل الغيبُ قَلَبَ المعادلات.

إياك أن تقع في الإحباط.. وإياك أن تقع في اليأس.. كن حاضرًا مع الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول: **(وَاللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، مَا تَرَكْتُه حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ دُوْنَهُ)**.

وحينما يدخل اليأس وتهيمن المادية على القلب تخسر المعركة قبل أن تدخلها.

لهذا حين قال جنديٌّ من جنود خالد: ما أكثر الروم وما أقل المسلمين! قال: **"لا، بل قل: ما أكثر المسلمين وما أقل الروم!"**.

إذا هُزمنا في الحرب المعنوية لا يمكن لنا أن نربح الحرب المادية أبدًا.

إذا كان الواحد منا مهزومًا من الداخل لا يمكن له أن ينتصر في ميدان الواقع، لذلك بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال، وبنى أحوالهم، وصدقهم، وثباتهم، ثم انتقل بهم بعد ذلك إلى دولة الإسلام.

أيها الأحبة، علينا أن نُذكِّر أنفسنا في المِحنة ببعضٍ من الآيات في كتاب الله، فإنها تفتح لنا أبوابًا إلى عالم الأمل، حتى لا نقع أسرى الإحباط واليأس.

قد تكون صادقًا ومُجتهِدًا في العِلْم والعمل.. لكنك تنظر من حولك فتجد عبثية واضطرابًا.

أنت تبذل كلَّ ما في وسعك، ولا توفِّر ساعة، ووقتك كلُّه جُهد، وفيك الصدق والإخلاص... لكنك تنظر من حولك فتجد نقيض ذلك، فتقع في اليأس، وهذا هو المَقْتل، فإنك لو بقيت وحدك، تستمد من توجيه الله لك: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] لكنك فوق اليأس والإحباط سوف تُؤثِّر كثيرًا.

إن لم تربح غيرك تربح نفسك، لكنك إذا كنت جادًّا في عملك وعلمك وصدقك وإخلاصك... ووقعت في اليأس والإحباط، فإنك ستخسر نفسك، وعِلمك، وعملك، وصدقك، وإخلاصك، وسوف تخسر كلَّ ما تبذله من جهد وتفاعل، لأنك خسرت حين وقعت في اليأس والإحباط الحالةَ المعنوية.

لهذا أختار بعضًا من آيات القرآن الكريم، على سبيل المثال لا على وجه الحَصر، لأُذكِّر قلبي وقلوب أخوتي في الله:

اقرؤوا قوله تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ، لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٤٦-٥٠]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]

واقرؤوا قوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٤-٧]

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]

وتذكَّر محنة لوط عليه الصلاة والسلام، يومَ أن ضاق بضيفه ذرعًا، فقال الملائكة له: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]

ثبِّتنا يا ربّ بقولك الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، يا وليَّ الإسلام وأهلِه ثبِّتنا عليه حتى نلقاك، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.